

## 279342 - ما هي الطريقة المثلى في احتواء عصبية الأطفال ؟

### السؤال

سؤالي يخص بنتاي ، فهما تبلغان من العمر 4 سنوات وستين ، أجد صعوبة كبيرة في تربيتهما ، فكلما حاولت أن أتعامل معهما بلين في نهاية المطاف أصرخ ، أو أضرب ، أو أقول أشياء لا أود قولها ، وأحس بكراهية ، بنتاي لا تسمعان كلامي ، فالكبرى منهما إذا قلت لها شيئا ترد علي بكثير من الأقوال ، والثانية بدأت تعاندها مما يثير غضبي، مع العلم إنني مررت بظروف صعبة جعلتني متوترة ، فما هو الحل ؟ كيف أستطيع جعل بناتي مطيعات ؟ وكيف أستطيع أن أجعل نفسي أكثر صبورا ؟

### الإجابة المفصلة

تربية الأولاد بصفة عامة ، والبنات بصفة خاصة يحتاج لتوفيق عظيم من الله تعالى ،

فقد كان يقال قديما : "الأدب من الآباء ، والصلاح من الله" .

انتهى من "الآداب الشرعية لابن مفلح" (3/552) .

وهذه قاعدة عظيمة في تربية الأولاد ؛ فكثير من الآباء يظن أنه قادر على تربية ولده ، بمهاراته التربوية ، وقدراته العقلية ، وملكاته النفسية !

ويظن أنه بإدخالهم لأفضل المدارس ، وتعليمهم أرقى العلوم ، وخلطهم بأرقى طبقات المجتمع: يظن أنه بذلك قد سيطر على نفوسهم ، وهيمن على تصرفاتهم .

وهذا غلط فادح !

نعم ، الوالدان مطالبان بأن يأخذا بكل أسباب التربية النافعة، الصالحة ، المتاحة لهما .

ولكن البأس ، كل البأس : إنما هو في ركون قلوب الآباء لهذه الأسباب ، ثقة بها واعتمادا على قوتها وشأنها

فالإنسان إذا وكله الله إلى نفسه ضل .. وإذا وكله إلى علمه ذل

وهذا نبينا صلى الله عليه وسلم وهو ، رسول الله ، وكفى ؛ قال له ربنا سبحانه : ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ )  
القصص/56 .

وهذا نبي الله نوح عليه السلام لم يملك لابنه شيئا حتى كان من الكافرين !!

ولما ناجى ربه ، و ناداه : ( رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ) هود/45 .

قال له ربنا جل وعلا : ( يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطِكُ مَنْ تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ) هود/46 .

ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم كل يوم إذا أصبح وإذا أمسى : (يا حي يا قيوم ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) .

رواه الحاكم وحسنه الألباني في " صحيح الجامع " (5820).

فتأملني ، يا أمة الله ، في هذا المعنى الجليل الذي يغفل عنه كثير من الآباء في زماننا :

ألا نركن إلى أنفسنا في تربية أولادنا ، ولا نركن إلى فهمنا ، وعلومنا .

بل نركن إلى الركن الوثيق ، والملجأ والمعاذ ، والمستغاث والمستعان ، رب العالمين ، الرحمن الرحيم .

فهو وحده : من يملك القلوب ، ويصرفها كيف يشاء ، ونواصي العباد بيده سبحانه ؛ إن شاء أقامها على الهدى ، وإن شاء أن يزيغها ، أزاعها ؛ سبحانه من قادر ، حكيم ، عليم ، لطيف ، خبير .

ومن أهم صور الأخذ بالأسباب في هذا الباب : أن يقابل العناد ، بالحكمة ، والتروي ، والتؤدة .

ذلك أن مقابلة العناد بالعناد : لا يولد إلا مزيدا من العناد !!

فالأمر فيه كلعبة شد الحبل بين طرفين ، كلما زاد طرف في الجذب ، كان ذلك حافزا للطرف الآخر ، لمزيد من الجذب !!

أما إذا تركت الأم طرف الحبل أمام طفلها ، فلم تعامله بندية ، وتحذُّ ؛ أو شكت أن تقطع عليه مادة العناد ، ورجع أمره إلى ضعف ، وكف عن المزيد من الإفساد .

والطفل العنيد ، عادة ما يتسم بالدهاء ، والتحايل الدائم على ما يريد فعله من أشياء .

وعادة ما يشعر بالاضطهاد ممن حوله ، من الإخوة والأقارب والآباء والأجداد ، وذلك لكثرة ما يصدر عنهم من انتقاد ، وقسوة وغلظة قاطعة لحبائل الوداد .

وهذان العاملان ، معا : من شأنهما أن يفضيا به إلى نوع من العزلة النفسية عن مجتمعه ، والرغبة الشديدة في الانتقام منه .

وهذا يظهر عادة في صورة العناد والسلوكيات العنيفة المتمردة على قواعد هذا المجتمع !

فالواجب عليك ، والحالة هذه : مقابلة التحايل والتذاكبي ، بالتغافل والتسامح .  
ومقابلة شعور الطفل بالاضطهاد ، بإشعاره بالتراحم والتعاطف .

ومقابلة سلوكه المتمرد العنيد ، بإظهار الحب ، والرغبة الصادقة في صلاحه ، حبا فيه ، وحرصا عليه .

مع اتخاذ المواقف التربوية الحازمة ، بغير قسوة ، أو إظهار للندية والتحدي في معاملته .

ثم اعلمي : أن احتواء الأطفال لا يتم إلا باجتنب أمرين ، وفعل أمرين :

أما ما ينبغي اجتنابه : فالإساءة اللفظية ، والإساءة الجسدية .

وأما ما ينبغي فعله : فالاحتواء اللفظي ، والاحتواء الجسدي .

وبيان ذلك كما يلي :

فأما الإساءة اللفظية فتكون بكل لفظ مهين ، يتوجه لشخص الطفل ، لا لفعله ؛ وذلك كوصفه بأنه : مهمل ، أو كذاب ، أو عنيف ، أو غيرها من الأوصاف السلبية .

والذي ينبغي فعله لاحتواء الطفل في مثل هذه السياقات السلبية : هو قصر الوصف السلبي على فعله ، مع وصف شخصه هو بنقيض فعله ، من المحاسن والفضائل .

فبدلا من وصفه بأنه مهمل ، نقول له : أنت منظم ، فكيف تفعل سلوكا فيه إهمال ؟!

وبدلا من وصفه بأنه كذاب ، نقول له : أنت صادق ، فكيف تقول كلاما لم يحدث ؟!

وبدلا من وصفه بأنه عنيف ، نقول له : أنت حنون ، فكيف تضرب أخاك بعنف ؟!

وهكذا دواليك .

وأما الإساءة الجسدية فتكون بكل تعدد جسدي مهين ، الغرض منه الإيلام والانتقام ؛ وذلك كضربه ضربا مبرحا ، يتجاوز ضرب التأديب الذي أجازته الشرع ، إلى مستوى الإيلام، والانتقام. ذلك بأن الضرب في الشريعة له ثلاث درجات:

أدناها ضرب التأديب ، وأعلىها ضرب الحد ، وأوسطها ضرب التعزير .

فلو تأملنا في ضرب الحد - الذي هو أعلىها - لوجدنا أن فيه قيودا شرعية ، تجعله أخف وقعا من الضرب الذي يقع في زماننا ، من الآباء والأمهات لأولادهم !

فالفقهاء يقولون : إن الصحيح القوي : يجلد في الحدود ، بسوط معتدل ، ليس رطبا ، ولا شديد اليبوسة ، ولا خفيفا لا يؤلم ، ولا غليظا .  
يجرح .

ويشترطون على الضارب ألا يرفع يده فوق رأسه ، بحيث يبدو بياض إبطه ، ويتقي المقاتل ، ويفرق الجلدات على بدنه .

واتفقوا على أنه : لا يضرب على الوجه ، والمذاكير ، والمقاتل .

انظر في ذلك : "حاشية ابن عابدين" (3 / 147)، والزرقاني (8 / 114)، و"الروضة" (10 / 172)، و"المغني" (8 / 313 - 315) .

وإذا كانت هذه القيود مشترطة مقررة في الجلد ، الذي هو أعلى صور الضرب ؛ فما الظن بضرب التأديب ؟!

وضرب التأديب ، كما في قوله تعالى : ( وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ) النساء/34 .

قال القرطبي في تفسيره (5/172) :

"والضرب في هذه الآية : هو ضرب الأدب غير المبرح ؛ وهو الذي لا يكسر عظاما ، ولا يشين جارحة ، كاللكزة ونحوها ؛ فإن المقصود منه الصلاح ، لا غير .

فلا جرم : إذا أدى إلى الهلاك ؛ وجب الضمان .

وكذلك القول في ضرب المؤدب غلامه ، لتعليم القرآن والأدب.

وفي صحيح مسلم : ( اتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه .. فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح) .

[الحديث أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل في الحج ]

ثم قال رحمه الله :

"قال عطاء : قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه !" .

وهذا أخرجه الطبري في تفسيره بإسناد صحيح .

والبديل المقبول للإساءة الجسدية أو اللفظية : هو العقاب بالحرمان .

والمقصود بالحرمان : الحرمان " التربوي " المقيد ، وليس الحرمان المطلق بلا قيد .

فحرمان الطفل مثلا من اللعب لمدة عشر دقائق : حرمان تربوي مقيد ، الغرض منه القهر المعنوي ، لتعديل سلوكه .

وإجلاس الطفل على كرسي العقاب ، لعدد من الدقائق ، الموازية لعمره الزمني ( عشر سنوات = عشر دقائق ) : هذا أيضا من صور الحرمان التربوي .

خصم جزء يسير محدد من مصروف الطفل اليومي : هذا من الحرمان التربوي المقيد كذلك.

أما عقاب الطفل بحرمانه من اللعب ، على مدار يوم أو أكثر ، أو بحرمانه من مصروفه كاملا: فهذا ترويض على العقاب ، يوشك الطفل ، مع تكراره : أن يعتاد عليه ، ويبدأ في البحث عن البدائل المتاحة ، إذا عوقب بمثل هذا الحرمان المطلق بلا قيد .

كذلك معاملة الطفل ، بلوحة النجوم ، سلبا وإيجابا : مفيد جدا .

وذلك بإعطائه نجمة ، أو أكثر ، على كل سلوك إيجابي .

وخصم نجمة ، أو أكثر ، مع كل سلوك سلبي .

ووضع قواعد لحساب هذه النجوم ، كالاتفاق ، مثلا ، على أن الوصول لعشرة نجوم : سيكون مقابله هدية . والوصول لعشرين نجمة ، سيكون معه رحلة ترفيهية ، وهكذا .

وأما الاحتواء اللفظي ، فيكون بثلاثة أمور :

أولها : كلمات الحب والمشاعر ، كقولك لبناتك : إني أحبك ، وما شابهها من كلمات .

ذلك بأن التعبير عن مشاعر الحب ، مما حث عليه النبي صلى الله عليه وسلم في أدبه لنا .

فمن أبي كريمة المَقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرَبَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

( إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ ) رواه أبو داود ( 5124 ) ، والترمذي ( 2392 ) وصححه الألباني

وينبغي : أن يحدث هذا التعبير بشكل نمطي يومي غير مشروط ، لا أن يكون مشروطا بمواسم ومناسبات ، أو أفعال وسلوكيات محبوبة للأب والأم .

وثانيها : كلمات التقدير والثناء ، ولو على أصغر الأشياء ؛ لأن كثرة الانتقاد ، والإهانة بشكل نمطي متواصل : يؤثر سلبا على شخصية الطفل ، ويضعفها بشكل كبير .

وثالثها : كلمات الدعم والتشجيع ؛ وذلك بتشجيعه على مهاراته الخاصة ، أو نشاطاته العامة ، ودعمه نفسيا ، بمواصلتها وتنميتها .

وأما الاحتواء الجسدي فيكون بثلاثة أشياء :

أولها : الاحتضان النمطي اليومي ، غير المشروط بفعل أو سلوك ، كما سبق في التعبير غير المشروط عن الحب والمشاعر.

وهذا من الأمور التي لها دور كبير في استقرار مشاعر الأطفال التوتيرية ، واحتوائهم .

ثانيها : التلامس الجسدي الإيجابي ، بإمرار اليد على شعرهم ، والتربيت على أكتافهم، ونحو ذلك من صور التلامس الإيجابي .

بديلا عن التلامس السلبي ، الغالب على طبيعة التواصل في سياق العند، والسلوكيات السلبية.

ثالثها : المشاركة المعنوية والحسية :

المعنوية بمجرد النظر باهتمام وإعجاب ، لما يفعلونه من النشاطات أو الهوايات أو المهارات الخاصة .

والحسية بالمشاركة الإيجابية الفعلية معهم ، في لعبهم ومرحهم ، وجدهم وهزلهم .

ومسك الختام هنا ، بذكر شيء مما فعله خير الأنام صلى الله عليه وسلم مع الصبيان والغلمان :

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا ، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمَرَ عَلَى صَبِيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَبِضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي ، قَالَ : فَتَنَظَّرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَقَالَ : يَا أُنَيْسُ أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ قُلْتُ : نَعَمْ ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ " رواه مسلم (2310)

وعنه رضي الله عنه قال : " خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي : أَفَّا قَطُّ ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ : لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟ " رواه البخاري(6038) ، ومسلم (2309) .

هذا فعله صلى الله عليه وسلم مع الخادم .. فما الظن بفعله مع الابن ؛ كيف كان ؟!

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : " خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَهُ ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ فَصَلَّى فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانِي صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا ، قَالَ أَبِي : فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ سَاجِدٌ فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ ، قَالَ النَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلَّتْهَا ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ ؟

قال : (كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَفْضِي حَاجَتَهُ ) " رواه النسائي (1141) ، وصححه الألباني .

وهذا فيه مراعاة حاجات الأطفال ، حتى في سياق عبادة الله الكبير المتعال !

نسأل الله أن يصلح أولادنا ، وأن يفقهنا في التعامل معهم على الوجه الذي يكون فيه صلاحهم ، وأداء أمانتهم ، ويرضي رب العالمين ، سبحانه ، عنا .

والله أعلم .